هي الحرية

للاستاذ محمود محمد شاكر

قالوا في قديم الأمثال : « ليس المتعلق كالمتأنق » ، فالرجل الذي أنعم الله عليه بسعة العيش ، وأرخى باله من هموم الحياة ، مطيق أن يتأنى فيما يختار لنفسه متذوقاً ومتخففاً حتى يرضى ، أما الذي قدر الله عليه رزقه فهو كالسهم في الوتر الشدود ترمي به يد الحاجة إلى هدف يتخايل له أو يتحقق ، وهو لو أراد لما أطاق إلا الذي فعل لأنه مدفوع بالاضطرار . ورب سارق لم يجد من السرقة بداً لأنه دفع إليها بحاجة طبيعية لا يطيق أحد خلافها ، وهو التعلق بالحياة والإبقاء على النفس ، فهو يريد أن يطعم الغريزة التي تلهب أحشاءه بالجوع المهلك . ومهما تكن روادع نفسه ، ومهما تكن قوتها ، فهو منتهٍ إلى ساعة لا يجد عندها إلا أن يمد يده ليأخذ شيئاً يمسك عليه رمقاً يوشك أن يتبدد . وما مد الرجل يده ، ولكن الحياة هي التي مدتها ، فهو خليق أن لا يكون عندئذ مسئولاً عما فعل . وكذلك الشأن في أحداث كثيرة تكون في هذه الحياة الدنيا وفي هذا الناس ، فإن المجتمع الإنساني يعنف بأبنائه أحياناً ويعتسف بهم أضل المجاهل ، لأنه لا يبالي بأن يكفل لأبنائه جميعاً حاجتهم التي لا غنى لأحد منهم عنها ، ولأنه يغفل في فورانه عن الطبائع الأولى التي تتطلب زادها من الحياة ، والتي إذا فقدت هذا الزاد لم تبق على شيء ، ولم ترع شيئاً ، ولم ترعو عن شيء . وهذا ضلال قديم في نظام المجتمع الإنساني ، أراده الأنبياء بالإصلاح ، وأراده عقلاء المفكرين بالتغيير ، فأدركوا شيئاً ووقف بهم العجز عن كثير . لا من عجز في هدايتهم أو آرائهم ، بل من عجز المجتمع عن أن يدرك سمو الأغراض التي رمى إليها الأنبياء والمفكرون .

وفي عصرنا هذا أمثال كثيرة على تغلغل الفساد والجهل والعسف وقلة المبالاة في قلب المجتمع الإنساني . أمثال يكون فيها الأفراد هدفاً منصوباً لاضطهاد جماعة الأمة أو الشعب ، وأمثال تكون فيها الأمة هدفاً لاضطهاد جماعة الدول أو الشعوب .

فليس في الأمم اليوم أمة لا تتداعى وتتنادى باسم الحرية : حرية الفرد ، وحرية الفكر ، وحرية العقيدة ، وحرية التجارة إلى آخر هذا الحشد من الحريات ، فهي بذلك تقرر جميعاً أن الحرية أكبر أغراضها ، وهذا طبيعي ، لأن الحرية هي إحدى الطبائع المستقرة في الإنسان الفرد ، وهو يطلبها طلباً حثيثاً ملحاً ، حتى ولو اضطر أن يستعبد نفسه لعمل يكدح في سبيله طول حياته ، ولكن غايته من هذا الكدح هي أن يتحرر من الكدح وهذا إحدى عجائب الطبيعة البشرية .

نعم إن الحرية غاية الفرد التي يسعى إليها وهو وحيد في مشاعره وفي بعض وجوده ، ولكنه إذا صار فرداً من جماعة كان للجماعة سلطان على هذه الحرية وتصرفها ، وهو شيء من حقها أيضاً . ولكنها إذا أرادت أن تتعسف وتحرمه حريته فقد أساءت من حيث أرادت الإحسان ، ولا تكون الجماعة رشيدة حتى تعرف أن الحرية حاجة طبيعية لا بد للفرد من الاستمتاع بها على وجه من الوجوه ، فلا بد إذن من أن تتيح أوسع ما يمكن من مجال تتصرف فيه الحرية على الأسلوب الذي يجعلها وافية بحاجته الطبيعية . ومن هنا يأتي الفرق بين نظام ونظام ، فيكون هذا بغيضاً مملولا ، وذاك محبباً مألوفاً .

والأمم اليوم في جماعة الدول بمنزلة الأفراد في الجماعة ، فلا بد للنظام الذي يريد أن يكون محبباً مألوفاً من أن يتيح للأمم جميعاً أوفر قسط من الحرية يتيح لها أن تتصرف على الأسلوب الذي يجعل الحرية وافية بحاجتها الطبيعية ، فإذا لم تفعل ذلك جماعة الدول انتقضت الأمم المسلوبة حريتها ورأت ذلك النظام بغيضاً مملولا ، وكرهته وكرهت أهله ، وصارت حرباً على الجور والعسف حتى تنال حريتها وتستمتع بها طبقاً لحاجتها الطبيعية . ومن أجل ذلك فيما زعموا ، أنشأوا هيئة الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية .

ولكن ماذا نرى من فعل جماعة الدول اليوم ؟ إنها جميعاً قد أنكرت بأسلوب يجمع بين الخسة والمكر والنفاق ، أن تكون فلسطين المضطهدة أمة عربية مستقلة حرة كما تشاء الفطرة الإنسانية ، وأرادوها أن تكون يهودية تفتح أبوابها لأنذال أمم الأرض ، فهم يتدسسون إليها من كل حدب ومن كل فج ، وهم

يزمعون أن ينزرها بأجساد يهودية تتساقط من الطائرات على أرضها ، وأرادوها أن تظل ساكنة هادئة مطيعة حتى تمتلىء جنباتها بالأنذال الذين يريدون أن يحولوها عن عربيتها إلى يهوديتهم .

وهذه الأمم التي كانت ، ولا تزال تتداعى وتتنادى باسم الحرية ، تسمع وتبصر ، فيسكت بعضها ويمالىء بعضها ، ويعاضد بعضها ، وتأذن جميعها للصهيونية الخبيثة أن تزرع بذورها الخبيثة في الأرض الطيبة . فإذا قامت العرب تناديهم باسم الحرية حاوروها وداوروها وتذللوا معها بكل أساليب الخسة والخداع والنفاق ، لأنهم يريدون أن لا تكون الحرية حقاً لهؤلاء العرب ، ويريدون أن تكون يهود عوناً لهم على سلب هذه الحرية من العرب ، ولن يبلغوا بإذن الله ما يريدون .

ثم هذه مصر والسودان ظلت أكثر من خمس وستين سنة وهي تتفزع من ثقل النير المضروب عليها ، فلما جاءت الساعة التي لا تطيق معها صبراً على ضروب الذل والهوان التي لقيتها من احتلال جيوش بريطانيا ، ومن احتلال شذاذ الآفاق الذين نزلوا أرضها فرتعوا في نواحيها كما يرتع السوس في الصوف في الصيف ، كما يقولون ، ولما جاءت الساعة وطلبت الفطرة الإنسانية في مصر حاجتها من الحرية التامة التي تتنادى بها تلك الأمم ، لاذت تلك الأمم بالصمت ولجأت إلى الخداع وتلفعت بالنفاق ، ويوشك أن تنكر على مصر والسودان حقوقهما في هذه الحرية العامة التي ينبغي أن تستمتع بها البشرية كلها أمماً وأفراداً .

بل أعجب من ذلك أنها لجأت إلى أدنأ الأساليب يوم أرادت تفريق كلمة المصريين بأن يوقعوا الشقاق بين أهل دينين ظلا أجيالا يتعاشر أهلهما بالمعروف . فلما سقط في أيديهم وأخفق سعيهم وحبطت أعمالهم ، انحازوا إلى أسلوب آخر هو تسليط جماعة من المرتزقة يقال لهم المراسلون الصحفيون ، يذيعون عنا كل خبيث بكل لسان لا يرعون حرمة ولا ذمة ولا عهداً . وحرضوا أيضاً أعوانهم من الأجانب الذين عاشوا في مصر طويلا أو قليلا ، ليجلسوا في المجالس ويذيعوا أن بلادنا وبلاد العرب جميعاً تسيء اليوم إلى الأجانب . ويعنون بذلك أنه منذ جلا الإنجليز عن جزء من مصر ، صار المصريون وحوشاً مفترسة تعتدي على الأجانب وتهينهم وتزدريهم قولا وفعلا . وكل ذلك يتناقله المراسلون الصحفيون من المرتزقة ، ويرسلونه ليذاع في الصحف في جنبات الأرض . ونحن نعلم علم اليقين أن هذا ليس من فعل المرتزقة أنفسهم ، بل هو من حث بعض الدول وإغرائها لهم بأن يقولوا هذا ويذيعوه ويتناقلوه بينهم وبين من يلقون .

هذا ، والأجانب أنفسهم قد عاشوا في مصر مع بريطانيا خمساً وستين سنة ، وهم يمتهنون المصريين ويسيئون إليهم في أنفسهم وأموالهم وأرضهم وعقائدهم ، حتى ألفوا هذا النوع من الفطرسة ، فلما جئنا اليوم نأباها عليهم كما تأباها بريطانيا وأمريكا وكل بلد قل شأنه أو ارتفع ، تصاخبوا علينا ، وراحوا يبسطون ألسنتهم وأفعالهم فينا وفي أخلاقنا وعاداتنا ، فإذا أراد أحدنا أن يكفكف من شر أحدهم ، انطلق يزداد صخباً وجلبة يستصرخ الدنيا كلها على هؤلاء المتوحشين الذين يسمون المصريين . ومع ذلك فمصر منذ عشر سنوات هي مصر اليوم لم يزد ما كان يلقاه الأجانب أمس فيها من رد وقاحتهم وجرأتهم علينا ، على الذي يلقونه اليوم من ذلك ، ولكنهم سمعوا ألسنة هؤلاء المرتزقة تذيع عنا الأباطيل ، فانطلقوا يتصايحون علينا كأننا صادرنا أموالهم وأجليناهم عن بيوتهم ، ونصبنا لهم المشانق ، وأعملنا فيهم استئصال الشأفة كما كان يفعل طاغية ألمانيا باليهود ! !

ثم تأتي المرتزقة من المراسلين فتزعم أن بلادنا قد أصبحت متطرفة في الحماسة للحرية ، وأن كلمة « مصر للمصريين » قد أصبحت أهم كلمة في مصر ، ويقوم صعلوك منهم يقول : « ولذلك لا يعجب المرء كثيراً حينما يراهم (يعني المصريين) قد ضلوا الطريق ! ولكننا نعجب حينما نتساءل : إلى متى سوف يستمرون في اندفاعهم الذي لا يكبح جماحه من أجل الحرية ؟ » .

ونحن نأسف لأن الشعب المصري لا يزال هادئاً صابراً على كل هذه الوقاحة التي يصبها علينا مرتزق بين ظهرانينا ، ونأسف لأن حكومتنا المصرية لا تزال هادئة صابرة ، بل مجاملة أشد المجاملة لهذا النوع من المرتزقة . وكان خليقاً بأية حكومة في الدنيا — لا حكومة مصر — أن تعرف أولئك الذين أذاعوا أنباء غير صحيحة في طائفة من المسائل التي تتعلق بمصر ، وأن تقول لهم إنكم كذبتم ، فإما أن تكفوا عن إذاعة هذه الأكاذيب ،